

ثقافة العنف في سوسولوجيا السياسة الصهيونية

عبد الغني عماد

بيروت: دار الطليعة، ٢٠٠١. ٢٠٨ صفحات.

هذا الكتاب
يتقصى جذور العنف في

ظاهرة الصهيونية كحركة سياسية، وفي التاريخ المعاصر لإسرائيل كدولة يهودية؛ فهو، إذاً، بحث في السياسة والدين والتاريخ وعلم الاجتماع معاً. ولهذه الغاية عاد المؤلف إلى التاريخ القديم ليدرس الجماعات اليهودية الأولى وكتابتها المقدس والعنف كطقس احتفالي من طقوسها الدينية. ثم توفّر على التلمود الذي ساهم، أيما مساهمة، في تأصيل العنف وتشريعه في الثقافة الجمعية اليهودية، وعلى دراسة الصهيونية في نشأتها وإشكاليات تأسيسها، وعلى إسرائيل كنموذج لتمجيد القوة وعسكرة المجتمع وتخصيب طقوس الكراهية والعنف. ثم تعرض لظاهرة ما بعد الصهيونية والمؤرخين الجدد، فأرى في كتابات هؤلاء محاولة لتفكيك النموذج الصهيوني ونقده، لا بهدف استبداله أو إزالته، وإنما بهدف تنقية شوائبه وإجراء عملية تجميلية له لجعله

مقبولاً، وإخراجه من مأزقه الكياني والوجودي.

المقولة الرئيسية في هذا الكتاب هي أن إسرائيل كيان منتج للعنف بحكم طبيعته وتكوينه البنيوي (ص ٥). زغاية هذا البحث تفكيك النموذج الصهيوني والثقافة التي أنتجها، ثم تحليل بنية هذا الكيان الذي قام على منطق القوة والعنصرية والاستيطان، والذي لا يستطيع، البتة، أن يتحول إلى دولة طبيعية كسائر الدول حتى لو أراد أن يستغني عن العنف والاستيطان والعنصرية. ولهذه الغاية استخدم الكاتب التحليل البنيوي الوظيفي لدراسة الظاهرة الصهيونية، وهو تحليل لا يحصر اهتمامه في إيضاح الأسباب التي أدت إلى قيام بنية عنفية، بل يحاول أن يبين، في الدرجة الأولى، حاجة هذه البنية إلى العنف كثقافة وكنمط رئيسي من أنماط السلوك في إسرائيل (ص ٦).

يستند الكتاب، منهجياً، إلى تقنيات علم اجتماع المعرفة، ويتوصل إلى عدة استنتاجات، منها استحالة تخليص الكيان

الصهيوني من عنصريته، لأن إسرائيل ستزول ككيان وكمشروع في اللحظة ذاتها التي تتخلى فيها، طوعاً أو قسراً، عن وظيفتها الاستيطانية والعنصرية (ص ٩). وهو يعتقد أن مأزق إسرائيل الآن هو عدم قدرتها على التوفيق بين الجيوبوليتيكا التوراتية المفتوحة والجيوبوليتيكا الإسرائيلية المحدودة بحدود إمكانات الدولة ومعطيات الصراع.

قصارى القول، إن هذه المقاربة الثاقبة لظاهرة العنف في تاريخ الصهيونية وإسرائيل تتميز، في الدرجة الأولى، بشموليتها وإحاطتها، فلم تكتف بتحليل الصهيونية بصفة كونها حالة استعمارية استيطانية فقط، ولم تقتصر على دراسة الدين اليهودي كوحدة تحليل فحسب، بل طورت أيضاً أدواتها التحليلية لتشمل مجموعة من وحدات القياس والتحليل، وانفردت بمعالجة آية التغيب الصهيونية ومقولة "الفلسطيني الغائب" لتستننتج أن الفلسطيني الغائب لم يكن غائباً

البتة، وإنما كان مغيباً، وها هو اليوم يصبح، مع انبثاق الانتفاضة، حاضراً بقوة، الأمر الذي يعني أننا أمام حالة فريدة ومقلوبة معاً: فالأيديولوجيا الصهيونية هي التي أنشأت مجتمعاً، بينما المجتمع يُنشئ الأيديولوجيا في العادة

صقر أبو فخر